

# الباب الثالث

## سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

( أ ) القضاء على الفتن والثورات .

( ب ) إحياء الخلافة العباسية .

٢ - سياسة بيبرس الخارجية :

( أ ) موقف بيبرس إزاء الصليبيين .

( ب ) غزو جزيرة قبرس .

( ج ) قضاء بيبرس على نفوذ الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام .

( د ) علاقة بيبرس بالمغول .

( هـ ) علاقة بيبرس بأرمينية .

( و ) سياسة بيبرس إزاء ملوك أوروبا .

( ز ) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة .

( ح ) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

( ط ) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

## الباب الثالث

### سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وتقدم إليه فارس الدين أقطاي المستعرب وبايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء ؛ وذلك قرب الصالحية قبل وصولهم الى القاهرة <sup>(١)</sup> . فلما تمت البيعة قال له أقطاي : لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك الى قلعة الجبل . فركب ومعه الأمير قلاوون وبلدان الرشيدي وجماعة آخرون فلقبهم في طريقهم الأمير عز الدين أيدير الحلبي نائب السلطنة - وكان خارجا لمقابلة قطز - فأخبره هؤلاء بما حدث ؛ فبايع بيبرس وقدم له فروض الطاعة ثم تقدمهم الى القلعة ووقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا . وكانت القاهرة قد زينت لقدوم قطز فرحا به وسرورا لما فعله بالتنازل واستبشارا بقدومه اليها ، واستمرت تلك الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق الناس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفا من ظلم المهالك البحرية ومعاودتهم ما كانوا عليه من الجور والفساد <sup>(٢)</sup> .

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ما تلقب به أحد <sup>(٣)</sup> . فأفاج ، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر .

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ (٢) مفصل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٦٥ - ٦٧ انقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٦ - ٤٣٧ (٣) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٨٦ .

أخذ بيبرس بعساك تربيته على دست الملك يطمح الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين من توسيع نطاق الامبراطورية المصرية ، والى اعلان الحرب على الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يغيرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وسنرى أنه بذل جهده في استئصال شأفتهم من هذه البلاد وان كانت لم تتحقق كل أغراضه ، اذ لم يمهله الزمان حتى يرى المدن الساحلية خالية من النواقيس والصلبان .

وكان همه موجها بنوع خاص الى رد غارات المغول الذين كانوا قد ثبتوا قدمهم في فارس وأسسوا لهم أسرة ملكية تسمى أسرة «الايخانات» أو الأسرة الهولاكية ، وكذلك محاربة الصليبيين الذين اتفقوا مع التتار ضد الولايات الباقية في أيدي الخلافة العباسية<sup>(١)</sup> . ولذا نراه بعد أن دخل القلعة واجتمع حوله الأمراء وكبار رجال الدولة يأخذ في منحهم الألقاب وتوليتهم المناصب العالية وإغداق نعمه عليهم بالاقطاعات الواسعة ليشتد بهم أزره ويقوى بهم ساعده . ولم يكتف بولاء الأمراء له بل أراد أن يكسب عطف الرعية ومحبة الشعب ويميل النفوس النافرة اليه فأخذ في ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها ، فعين فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكا للعسكر واستناب عنه في السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار وفوض إليه جميع أمور الدولة وصار صاحب الحل والعقد بها وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر وعزل الصحاح زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصحاح بهاء الدين بن حنا<sup>(٢)</sup> .

أراد بيبرس أن يستجلب رضى الرعية عنه ويثبت في نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه وتناسى ما قدمت يدها من السيئات ؛ فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 264.

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٩٨ - ٩٩

(١) والضرائب . فاطمأت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشر بوا محبته في قلوبهم ؛ ثم جد في إحضار المماليك البحرية الذين كانوا متفرقين في البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاي . وبذلك تلافى بطشهم بالأهالي فجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشيء الكثير .

كذلك أرسل بيبرس الى سائر النواب والأمراء في مصر والشام يعلمهم باعتلائه عرش البلاد المصرية ؛ فأجابوه بالطاعة والاذعان في سائر النواحي سوى بعض الأمراء في بعض الجهات الشامية فانه عظم عليهم تولية الظاهر وامتنعوا عن الاعتراف به سلطانا واستقلوا ببلادهم مما حدا بالظاهر الى محاربتهم حتى ينضووا تحت لوائه قبل أن يتفرغ لشئون بلاده الخارجية .

### (١) الثورات الداخلية :

لم يصف الجوّ تماما لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه الملك المظفر قطز بدمشق . فقد نادى بنفسه سلطانا عليها في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حماه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص لي دخلا في طاعته ، فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشا مع علاء الدين أيديكين البندقداري لمحاربتة ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق في صفر سنة ٦٥٩ هـ ، والتقى

(١) كان قطز قد أنقل كاهل أهالي مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث الترك ، كما فرض دينارا على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة . مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاكر الکتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٨ ؛ Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 14.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨

ي جيش الحلبي بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جن الليل خرج لا يلوى على شيء قاصداً بعلمك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها<sup>(١)</sup>، وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحبها حماه وحصن إلى بلديهما. ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة في حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابرها<sup>(٢)</sup>.

أما عن ولاية حلب فإن قطز كان قد ولى عليها عند عودته إلى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غير أن السعيد سار في حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم وعند ما بلغه مسير التتار إلى البيرة<sup>(٣)</sup> في أواخر سنة ٦٥٨ هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند، ولم يقبل نصيحة أحد في منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقات التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب من البيرة، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذي ابتزه من الأهالي ظلماً، ويقدره المؤرخون بنخمسين ألفاً من الدنانير<sup>(٤)</sup>.

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقرت حسام الدين بها. غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماه، وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظن في أول الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به، غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص — وكان التتار في هذه الأثناء قد انقضوا على حماه — فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص في المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار، فالتفوا

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ (٣) البيرة : بلاد قرب سميساط بين حلب والقفور الرومية . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : المختصر

فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ؛ المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٧٠

(١)  
بهم بظاهر حمص وقتلهم وتمت النصر للساميين وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم  
المسامون يقتلون ويأسرون ؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل  
ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق  
حتى انتهت ثورة سنجر . أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها  
واستقر مكانه نحر الدين الحمصي نائباً من قبل الملك الظاهر .

بعد أن استقر علاء الدين البندقدارى بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة  
من المماليك الذين كان يتوهم مناقستهم له في الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرقي  
وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما . وكان الأخير والياً على نابلس وغزة وبلاد  
الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين لمحاربة سنجر بدمشق . ولما  
قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين  
وفتروا إلى دمشق ليلاً، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الانضمام إليه  
ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور في ذلك فأغلظ  
له في الرد؛ فغضب نحو حلب وبها نحر الدين الحمصي الذي أرسله علاء الدين  
لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه في المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه  
بهذه الأطراف تحت طاعته؛ فاعتز نحر الدين بقوله وسار نحو الظاهر، ولم تمض  
مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على ما بها من الأموال وجمع حوله  
العرب والتركان واستعد للقتال . وسار جيش مصر قاصدا الشام لمحاربتة بقيادة  
جمال الدين محمودى وعلم الظاهر بمسير نحر الدين إليه فوجه على تركه حلب وركبه  
مع الجيش وعفا عن سنجر الحلبي وسيره هو أيضا لمحاربة البرلى؛ فسار الجميع إلى  
حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة ولما لم يجد يستد غيرها أعلن ولاءه

(١) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٧٥ ؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة  
عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها .

(٢) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

للملك الظاهر واستأذنه في القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته ، ثم غادرها ثانياً إلى البيرة ، ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه سنة ٦٦١ هـ .<sup>(١)</sup>

وفي هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين . وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم جنداً له ووجههم للاغارة على الشوبك ومما يليها من الولايات التي دخلت في حوزة الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد ، فهم الظاهر بالذهاب إلى الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ، فأمهم واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم .<sup>(٢)</sup> غير أن بيبرس لم يأمن بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته — فغادر مصر في ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة في ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها في العودة ثم استدعى المغيث فقدم إليه بعد تردد وتقابلا في بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده له وتأمينه كما أنه تناسى استعطافه والعفو عنه فقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً ، فظل معتقلاً بقلعة الجبل حتى قتل .<sup>(٣)</sup>

وقد يكون للظاهر في قتله بعض العذر إن صح ما يرويه المؤرخون عن هذه الحادثة ، فقد ذكر أبو الفدا<sup>(٤)</sup> أن المغيث كان قد راود امرأة الظاهر عن نفسها حين فز بيبرس منه إلى غزة وقدم إلى مصر وترك زوجته بالكرك في عهد سلطنة قطز كما تقدم . وهذه الحادثة إن صحت تُحفظ القلوب وتُنسى معها العهود والمواثيق .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤ (٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٢٨٤ (٣) المفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ ابن شاذان الكشي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ و ٢٣١ (٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٦

لذا نرى الظاهر يضمم السوء للمغيث ويتظاهر له بلين القول وزخرف الحديث حتى تمكن منه . وهناك أمر آخر يميز للظاهر فعله مع المغيث . فقد زوى كل من أبي الفدا والمفضل والمقرزي أن الظاهر بعد أن قبض على المغيث أحضر الملوك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان والشهود ورسل الفرنجة وأظهر لهم فتاوى الفقهاء بقتله وأحضر السفراء الذين كانوا بينه وبين هولاء كو وقرت الكتب المذكورة عليهم<sup>(١)</sup> ، وانفض الجمع وكتب السلطان إلى من بالكرك يحذرهم ويتوعدهم وسير إليهم بدر الدين بيسرى وعز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال . وهذه الرواية تفيد أن المغيث كان متواطئا مع التتار متصلا بهم اتصالا سريا بالمكاتب والرسل مما قوى الشبهة في اتهامه لدى الظاهر ، كما أن هناك سببا آخر دعا بيبرس إلى الغدر به وهو أن أحد رسل التتار كان قد قدم إلى المغيث ليوقف على أخبار الملك الظاهر ، فلما علم بذلك بيبرس بعث بمن يحضره إليه فأنكره المغيث أولا ثم اضطر إلى إرساله<sup>(٢)</sup> . ومن هذا نفهم أيضا أن استعطاف المغيث للظاهر وطلبه الأمان ما كان إلا خوفا من قوته وسطوته بينما هو يدبر المنكايد له بمناصرة أعدائه والانضمام إليهم ولو من طرف خفي .

وبعد أن اعتقل المغيث أرسل الملك الظاهر واليا على الكرك وأمن أهلها ورتب أمورها وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها ، ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص — وكان

(١) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٧ ؛ النهج السديد ص ١٠٩ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك

ج ١ القسم الثاني ص ٤٨٢

(٢) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ص ٤١٣ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون

التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١ ، أن هذه الكتب تتضمن شكر هولاء الملوك المغيث ووعده إياه باقطاعه البلاد من بصرى إلى غزة ، وبارسال عشرين ألف فارس لفتح مصر .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١

ملكها وراثيا لأبائه من أيام الملك العادل نور الدين ، ولم تول متوارثة فيهم الى أن مات الأشرف سنة ٦٦١ هـ — وبموت آت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بني أيوب .<sup>(١)</sup>

### (ب) إحياء الخلافة العباسية :

تولى الظاهر عرش مصر في وقت كانت البلاد فيه مفككة المعرى منصومة الوحدة والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحي . فمصر تنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها واستبداد الأمراء من المماليك بالأمر فيها وتطلع الأيوبيين بالشام إليها وتهديد التتار لها ، والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها في أيدي الأيوبيين ، والصليبيون يحتلون سواحلها ، والتتار قد أغاروا عليها واحتلوا جزءا عظيما منها بعد أن تم لهم الاستيلاء على جزء كبير من البلاد الشرقية من أقاصى بلاد ما وراء النهر الى حوض دجلة والفرات .

ولما أمر هولاءكو بالهجوم العام على بغداد في ٣ يناير سنة ١٢٥٨ م ، ودحر جيوش الخليفة ولم يبق في طريقه الى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة نفسه بعد أن وعده هولاءكو بالأمان ، ثم لم يلبث أن قتل بعد أيام قلائل هو وولده أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن . وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الإسلامية من الخلافة وليس من أمراء المسلمين من يجرؤ على إعادة الخلافة الى سابق عهدها .

حقا لقد شغل كل أمير إسلامي بالعمل على بقاء سلطته في دولته التي أمر عليها أو مقاطعته التي ملكها وليس له وراء ذلك غاية أو مآرب إلا أن يكون رغبته

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٥

(٢) تختلف الروايات في كيفية قتل الخليفة المستعصم وفي هذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فأنهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقيل إنه اختفى وقيل وضع في عدل ورفس حتى مات وقيل غرق في الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٣) Bröwne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463.

في اتساع منطقتة أو ازدياد نفوذه في بعض النواحي الأخرى . ولم يفكر أحد في إعادة الخلافة سيرتها الأولى ؛ فظل منصبها شاغرا حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ ( ١٢٦٠ م ) .

أخذ بيبرس في السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية الى مكانها بعد أن قضى عليها هولاءكو في بغداد . وكان بيبرس يرى من وراء ذلك الى أن يقوى عرشه في مصر ضد أحقاد نظرائه من المالِك ويجعل حكمه شرعيا في البلاد . ويعزو السيروليم ميور سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية<sup>(١)</sup> بمصر الى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأي بعيد عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده في المصادر العربية والافرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامرات التي دبرت سنة ١١٩٤م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعل السيروليم ميور اعتمد أن طائفة الإسماعيلية التي كانت تقطن سورية في ذلك الوقت والتي كانت على عدااء مع بيبرس ربما تفكر في إرجاع الخلافة الفاطمية ؛ ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر ، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا في إرجاع الخلافة للفاطميين ، ولم نسمع أنهم اشتركوا في المؤامرات التي دبرها شيعة مصر لإعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أول من فكر في إحياء الخلافة العباسية بل سبقه الى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذي ما كاد يعلم من

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) اشترك في هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الإسماعيلية ومالك صقلية وعموري ملك بيت

المقدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

(١١)  
الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً قدم إلى دمشق حتى أرسل يستدعيه إليه؛ غير أنه فوجئاً بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا . وعند ما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر انتصاره على التتار في موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسي . فقال له "إذا رجعنا إلى مصر أنفذه علينا لنعيده إن شاء الله" (١٢) . ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمي إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين؛ غير أنه لم يعمر طويلاً حتى ينفذ هذه الفكرة .

كما تقدم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين في ذلك الوقت كانوا يميلون إلى إحياء الخلافة العباسية؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع في تنفيذ ما فكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكي يعزز زعامته للإسلام . وقد تحققت آماله في إحياء الخلافة عندما ورد إليه كتاب من الأمير علاء الدين طبرس والأمير علاء الدين البندقداري يتضمن أن رجلاً وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة؛ فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً ويكلفهما بأن يعينا من يقوم في خدمته ويرسلا معه حجاً إلى مصر وأعد العدة لاستقباله . وعند ما علم بجيئته طار إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين ابن حنا وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر؛ واليهود يحملون

- (١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القي بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ (٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣ (٣) ذكر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق وزاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار في جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديشة وهيت والأنيار وانصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أنه أميراً عباسياً أتى بدمشق ليرجع إلى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلي . وسرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذي استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .
- (٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨

التوراة والنصارى يحملون الإيجيل وساروا جميعا الى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا الى قلعة الجبل <sup>(١)</sup> . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيا لهذا المركز ؛ إذ أبى حين وصوله الى القلعة أن يتقدم الإمام أحمد في الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا في مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسي معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلسا في قاعة الأعمدة دعا اليه القضاة والعلماء والأمرء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام <sup>(٢)</sup> ، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهد العرابان الذين قدموا الى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدي هذا الإمام العباسي واستدعى العرابان الذين قدموا معه من بغداد ؛ فأقرؤا جميعا بين يدي قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل بالنسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضا بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضي القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه <sup>(٣)</sup> "على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها" ، وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة في مصر باسميهما ، وكذا أمر

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٧ ؛ أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحيانا على كبار العلماء . القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٦ ص ٩

(٣) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ١٩ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ - ٤٥٠

بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له في خطبة الجمعة . ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب  
ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعمام وسائر الأمراء  
بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي رذ  
الخليفة لبي بن العباس<sup>(١)</sup> .

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصا عند شروعه في مبايعة الأمير العباسي  
الذي قدم إليه ، فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بني العباس  
بخلاف الملك المظفر قطز الذي ما كاد يعلم أن أميرا عباسيا وصل إلى دمشق حتى  
سارع إليه وبايعه بالخلافة .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون في نسبة  
هذا الخليفة إلى العباسيين . ويتضح لنا ذلك من عبارة أبي الفدا<sup>(٢)</sup> في هذا الصدد  
ونصها : "وفي هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص  
أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر" ثم يقول  
في موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار "وبرز الملك  
الظاهر والخليفة الأسود ... .. وتوجها إلى دمشق" . كذلك نجد مفضل بن  
أبي الفضائل<sup>(٣)</sup> يسمي هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود .

ولعل الشك الذي يبدو في عبارة هذين المؤرخين من حيث صحة نسب هذا  
الإمام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، ولكن سواد اللون لا يمنع صحة  
النسب ، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلا أسمر اللون . ويستدل على  
ذلك بما رواه لنا بن إياس<sup>(٤)</sup> حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠١

(٢) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٣

(٣) التتبع السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٠

أما النويري<sup>(١)</sup>، والمقرزي<sup>(٢)</sup>، وأبو المحاسن فلم يظهر لنا من كلامهم عن هذا الخليفة ما يشعرنا بأنهم كانوا يشكون في صحة نسبه، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخليفة ينتمي حقيقة إلى بني العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله بن العباس الهاشمي .

وتنفيذا لرغبة الملك الظاهر في تقوية عرشه ضد منافيه من أمراء الماليك وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسي له بالسلطة . فخرج في ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسي والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضي نحر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر .

وقد أورد لنا النويري<sup>(٤)</sup>، والمقرزي<sup>(٥)</sup>، وأبو المحاسن<sup>(٦)</sup> صورة هذا التفويض تقتطف منه ما يلي :

” بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام بماليس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علاقته حتى أنسى ذكر ما سلف وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من مختلف... وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ... وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصا ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطاني

- (١) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ٢٠
- (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥١
- (٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ أ
- (٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ - ٢٨
- (٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥٣ - ٤٥٧
- (٦) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٨٨ - ١٨٨ ب .

الملك الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافا بصنعه الذي تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ... وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لورامه غيره لا متنع عليه ... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع المحرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكالم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ... وأبسط يدك بالاحسان والعدل ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبا ... وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء في حوائجهم بالنعير الباسم والوجه الطلق ... ومما تؤمرون به أن يعي ما أحدث من سيئ السنن وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن ... وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملك الظاهري الركني أن تكون ظلمات الأنام مردودة بعده ... ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحي على الأمة فرضا ... وبك يرجي أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد فما تجدد في تأييدها إلا مطيعا سامعا . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ... وشيد منها كل ما غادره العدو منهدما ... وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ... وكذلك أمر الأسطول ... إلى أن يقول : والله يمتك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمته فإن النعمة ستتم بشكره

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهي ( جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ) فلبسها وسار الموكب من باب النصر في طريق مفروش بالهسط إلى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف <sup>(١)</sup>.

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعد العدة لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد؛ فرتب له بعض الأمراء والعساكر وهيا له كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل <sup>(٢)</sup>. ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطرا عنية فأعرض ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخرق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك <sup>(٣)</sup>. فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة <sup>(٤)</sup>. وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « ما معنا سر سوم بذلك » وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها إلى عانة. وهناك تقابل بالأمير أبي العباس أحمد <sup>(٥)</sup>، وكان معه سبعمائة فارس من التركان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيرا هذا الأمير إلى الانضمام إلى الخليفة بعد أن أمنه، ثم رحل

(١) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 15-16

(٢) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٢

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16 (٣)

(٤) تقع على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . وقوت : معجم البلدان .

(٥) كان صاحب حلب شمس الدين الغوري قد بايع هذا الأمير بالخلافة عند ما امتنع عن الذهاب إلى

مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها ، ولقبه بالحاكم بأمر الله وقبض اسمه على القدرهم ، ثم جهزه على رأس جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قبل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السديوطي : تاريخ

إلى الحديثة ففتحها من غير مقاومة ، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه فظل محاصرها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى .<sup>(١١)</sup>  
ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرابغا ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده في تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ . ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله<sup>(١٢)</sup> .

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط ، بل على ما أنفقته في سبيل ذلك أيضا من الأموال الكثيرة والمعدات التي تفوق قيمتها وصف الواصفين<sup>(١٣)</sup> . كما أنه رأى أن سياسته في إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر في الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التي تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها ؛ ومن هنا نجد أنه يبعث في طلب أمير عباسي آخر وهو أبو العباس أحمد<sup>(١٤)</sup> . ولما قدم عليه

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثاني ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٧ .

(٣) ذكر المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقته الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقداً و ٦٠٠٠٠ دينار عينا . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء، ص ٣١٧) فقال إنه صرف نحو مليون دينار ذهباً وستين ألف درهم .

(٤) ذكر أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة في أواخر سنة ٦٦١ هـ . أما المفضل : التبع السديد ص ٩٢ ، المقرئى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ ؛ فيفهم من كلامهما أنه قدم إلى مصر سنة ٦٥٠ هـ ، وأن الملك الظاهر احتفل بلقائه وأزله في البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة في أواخر سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التي لايشوبها غموض وتنقق مع مجرى الحوادث هي التي ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ وهي أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وانهازمه عند هيت على يد التتار ؛ فكتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدم الأمير أبي العباس أحمد ، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة، ثم قرئ نسيبه بعد ما ثبتت صحته انقضى القضاء تاج الدين بن بنت الأعرن الذي بايعه على أثر ذلك، ثم تلاه السلطان فبايعه "على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحققها وصرفها في مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعلة في أمور الدين". فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده "أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامة قسيمه في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وعقد به صلاح الجمهور". ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين؛ وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، غير أنه في هذه المرة لم يكن هناك تفكير في الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية<sup>(٣)</sup>.

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بمبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ؛ إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر - على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صنفد رجلين ادعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم؛ أما الثاني فقال إنه من أولاد الخلفاء؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وفد إليها في ذلك الوقت أيضا على بن الخليفة المستعصم<sup>(٤)</sup>. ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسي كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أميناً لإيوائهم. غير أننا لا ندرى ما الذي دفع الملك الظاهر

(١) ابن شاكر الكنتي : عبون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٧٧ - ٤٧٩

(٣) Stanley Lane-Poole. N. I p. 265.

(٤) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٤

إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد باع قبل ذلك أميراً عباسياً بالخلافة ،  
لعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة في استمرار الخلافة العباسية  
بمصر . ويتبين لنا ذلك من عبارة النويري في هذا الصدد . وهالك نصها " وفي شهر  
رمضان من سنة ٦٦٤ هـ وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك  
الذي كان عند هولاكو وصحبه جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين  
النجيبي في أعز مكان . فلما وصل الساطقان إلى دمشق سفير إليه جلال الدين بن  
الدوادار والطواشي مختاراً فاعترفاه وظهر أنه بخلاف ما ادّعى فسير إلى مصر تحت  
الاحتياط " . على أننا نرى أن هناك سبباً آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته  
في إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدده كلما حدثته نفسه بالتدخل في شؤون الدولة  
بخلعه ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيلة حتى لا يجعله يشغل  
المكانة التي كان يتمتع بها سلفه فجعله شخصاً عادياً مراقباً سجيناً في القلعة<sup>(٢)</sup> .

ولا شك أن الرغبة الأكيدة التي جالت في نفس الظاهر بيبرس والتي أراد  
أن يحققها من وراء عقد الخلافة الإسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر  
منها دينية وبعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة  
الخليفة له باعتباره حامى الدين ؛ فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل في الروس مالا تعمله  
أساليب السياسة أيا كان نوعها ومالا تناله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء .  
ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد  
ما كان لهم من عز وجاه ؛ فإن ذلك كما يقوِّض دعائم ملك التتار الذين استولوا  
على بغداد يهدم ساطة الظاهر في مصر والشام ؛ وبيبرس لا يهدم ساطانه بيده .  
وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت في هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب  
الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتنجلي لنا رغبة الشعب العامة في إبراز فكرة الخلافة فيما يرويّه بن إياس<sup>(١)</sup> عن بعض الشعراء حين بويح الخليفة بمصر :

يا أسد الـترك يا رُكُـنهم \* ويا آخذَ النار بعد المخافـة

كسرت الطغاة جبرت العفاة \* قطعت الفرات وصلت الخلافة

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة في المجلس الحافل بعظاء الرجال وكبار الدولة مثلا ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شؤون الدولة والمالك لزام الحكم فيها قد أبت نفسه أن ترتفع في المجلس على منضدة أو أريكة في حضرة أمير المؤمنين ليريهم أن هذه المنزلة لم يسم إليها إلا الخليفة . فكان ذلك أكبر عامل بعث في نفوس الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية . هذا الى ما تنطوى عليه نفوسهم من إكبار فكرة الخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس في البلاد المصرية والشامية أصبح في غنية عن ظهور الخليفة في المجتمعات العامة ، كما لم يصبح في حاجة الى إسماع كلمته للشعب . لذلك نراه يزوج به في أعماق دار<sup>(٢)</sup> لا يصل إليه أحد من خواص الدولة ورجالات الشعب . ولعل السر في إخفائه أنه خاف على نفسه من طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقيم مقامه الخليفة فتنتقل الى يده السلطة الزمنية أيضا . ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا الى إحياء الخلافة الاسلامية فحسب وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضا .

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٩٠ ؛ أن الملك الظاهر أنزل الخليفة الحاكم في مناظر الكباش التي أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وعائلته كما أمره أن يصعد القلعة في أول كل شهر ليقدم له فروض التهنئة .

## ٢ - سياسة بيبرس الخارجية

## (١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته في مصر أن يعمل على إحياء الامبراطورية الإسلامية، لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم في موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع في القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠ م . ويرجع ذلك إلى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام إلى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق الناصر داود الأيوبي سلطاناً عليهم<sup>(٢)</sup>؛ فكان لابد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

وقد نجح المماليك في أيام الملك المظفر قطز في إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس في موقعة عين جالوت

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الإسلامية في أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير في تقدم الصليبيين ، إذ حالفت مملكة دمشق الدولة الصليبية بيت المقدس سنة ١١٣٩ م ضد أتراك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضع الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الإسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الإسلامية وقل الخطر الإسلامي إلى حد ما ثم زاد وبلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 240) غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وشوهد ذلك واضحة ؛ فالعقبات التي عقدها العادل مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأموالهم والمعاهدة التي عقدها الكامل مع فردريك الثاني كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق . Stanley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226.

من هذا كله ترى أهمية انضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد في مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

التي مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م؛ وبذلك تهيأت الأسباب التي تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام . أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق ، فإنه على الرغم من تطلع المسيحيين الى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في حروبهم ضد المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم في بلاد الشام وتحالفه مع بركه خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين إيلخانات فارس قصيرا . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس الى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء الى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم في الدين في دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم .<sup>(٢)</sup>

وقد عمل بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية في الشرق (من سنة ١٢٦١ — ١٢٧١ م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس الى تلك الامارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية — التي أعلنت عطفها على المغول — وقيليقيا وجهات عكا<sup>(٣)</sup> . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستخاض البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم . وستعرض لحروبه معهم والأسباب التي كانت تجعل الظاهر على غزوهم عدة مرات في مواقع متفرقة والتي جعلت منازلته لهم تستمر مدة عشر سنوات تقريبا وفي كل موقعة ينتزع بلدا أو أكثر الى أن ألجأهم الى الانضواء في صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين الى عهده . نعم كان بيبرس في غزواته ضد الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

وينتقص مدتهم من أطرافها وإن كان قد لقي كثيرا من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتم رغباته ؛ ومن ثم لم يوزم أمامهم أو يمنع عليه أحد حصونهم ، على أن بيبرس لم يشرع في تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة محادثات مع الدول المحيطة بتلككته ؛ فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القنجاق ضدّ خانات فارس وتبودات بينهما البحوث بين سنة ١٢٦١ - ١٢٦٣ م ، كما عقد تحالفا دفاعية مع ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) امبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة تحالفاته فأرسل بعثا الى منفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم<sup>(١)</sup> .

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسالهم اليه تطلب الصلح فأجابهم الى طلبهم<sup>(٢)</sup> . غير أن الفرنجة لم ينفذوا ما وعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين فعنتهم لتسوية قلوبهم على إخوانهم في الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين في بناء حصون دمشق .

ولما هدأ روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن في استطاعته أن يحذف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر في إغارته عليهم يرجع الى تقضم اليهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض العاقل ؛ فقام إظهارا لسخطه وغادر مصر الى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م حتى إذا توسطها جاءتته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان اليهم ؛ فكتب اليهم كتابا قال فيه<sup>(٣)</sup> "إن من يتولى أمرا فعليه باليقظة

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (١)  
pp. 265-266.

(٢) المقرزي : السلوك ج ١ القم الثاني ص ٤٦٣ - ٤٦٤

(٣) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (٣)

ومن خفى عليه خروج هذه العساكر وجهل ما عليه الوحوش في القلاة والحيطان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أنارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنا بكمها قد أصم أسمع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان<sup>١١</sup> من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأى شيء تعملون ؟ . ولما رأى الظاهر مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكتبونه بدمهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم "ما تقولون" ؟ . قالوا : "نتمسك بالهدنة التي بيننا" . فأجابهم بقوله "لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان واتفاق الأموال التي لو جرت لكنت بحارا ونحن لما حضرنا إلى هاهنا ما آذينا لكم زرا ولا غيره . وأتم منعم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلقنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى إلى نابلس ثم إلى دمشق ، وما سيرتم أتم أحدا وسيرنا رسولا يعلدكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحدا ولم ترحوا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ... ثم إنا سيرنا رسلا إلى [ بلاد السلاجقة ] الروم وكتبنا إليكم بتفسيرهم في البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرس ؛ فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم . هذا مع إحساننا إلى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم" . ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح اسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتي صفد والشقيف وأنهم غدروا وناصروا لويس التاسع وصحبوه إلى مصر ... إلى أن قال "وبالجملة أتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح اسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها ... وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجاتهم فردوا ما أخذتموه من البلاد فكوا أسرى المسلمين جميعهم

(١) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

فإني لا أقبل غير ذلك“ . فقالوا: ”نحن ما ننقض المدينة وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى ...“ فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طبرس الى كنيسة الناصرة ؛ فسار إليها وهدمها ولم يبق من الفرنجة أى مقاومة<sup>(١)</sup> .

لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة ؛ بل جرد جيشا الى مدينة عكا فافتحم أبوابها ، ثم سار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) . وكان الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول بالقرب من عكا واتخذوه قلعة يجارون من فوقه .

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل ؛ بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق وسرعان ما اتهموا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ففتروا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلاء الجو بالدخان . وحين دخل الصليبيون مدينة عكا ، أغلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها ؛ غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم في الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلات أيدي الجيش المصرى بالأسرى والغنائم<sup>(٢)</sup> . وهكذا ذاق الصليبيون وبال أمرهم ونالوا عاقبة غدرهم وعدوانهم على ما ليس لهم سلطان عليه من المدن والقرى .

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار؛ غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتداء في مهاجمة المدن اللاتينية<sup>(٣)</sup> ؛ فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففتز أهلها إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East p. 338.

قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها، ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم في هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حد هذه الهزيمة التي نزلت بهم في قيسارية بل لم يكف ينته من هذه المعركة حتى أرسل جيشا إلى عثليث وحيفا أوقع التخريب فيهما، ثم حوّل وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبي قيسارية وشرع في مهاجمتها، غير أن سكانها (الفرسان الهوسيتالين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدة أربعين يوما . وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الديني بالغا أشده في نفوس الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفي النهاية اضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية وأمنهم على حياتهم، ثم أكرههم على العمل في تخريب حصونهم بأيديهم . وعند ما شرع في العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصليبان مكسرة والأعلام منكسة<sup>(١)</sup> .

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض التي انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا في صحيفة<sup>(٢)</sup> أوردتها كل من النويري<sup>(٣)</sup> والمقرزي<sup>(٤)</sup> . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تم عن الفخر والاعتزاز بالنفس، وأنه هو الذي وطد دعائم الدين الإسلامي بهزيمة أعدائه من التتار

Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١)  
p. 20.

(٢) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النج السديد ص ١٣٨ - ١٣٩ و ١٤٤ ؛ أن الظاهر بعد أن تفر منح أمراءه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التي سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازن دار ودوان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانيا ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى غزوة وكتب لإقرارا بتمليك هذه المنح للأمراء وافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٧٧ - ٢٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٣٤ - ٥٣٤

والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ما قام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التي جعلته يؤثرهم على نفسه ويمنحهم البلاد والضياح .

ما كان الظاهر ينزل الصليبيين ويتجشم المتاعب في محاربتهم مضجعا بكل ما لديه من عتة وعدد في سبيل الإيقاع بهم إلا لعدم وفائهم وتعتيهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع ونتابع إغاراتهم على ممتلكات سلطان مصر .

ففي سنة ٦٦٤ هـ ( ١٢٦٦ م ) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص ، فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل ما لديه من الجنود .<sup>(١)</sup> ولما وصل إلى غزوة سير جيشا إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فساروا على غرة من العدو ونزلوا على حصن الأكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستولوا على بعض القلاع . أما بيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ، فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس .<sup>(٢)</sup> ثم اتجه نحو مقصده فتقدم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء في عتة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن ، ثم سار بنفسه إلى عكا وأقام بها حتى قدم إليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد .<sup>(٣)</sup> وهناك وافته الحملة التي سيرت لتخايص حمص بعد أن قامت بمهمتها .<sup>(٤)</sup>

تجمعت هذه القوى أمام صفد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشغل بنفسه في محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 21.

(٢) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثاني ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٣) كانت صفد في ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية :

King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 260.

(٤) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٥ — ٥٤٦

أذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى؛ وفي نفس الوقت منع شرب الخمر  
 لمعسكرها، وشدّد العقوبة على من تحدّثه نفسه بالنهب أو بالتلاف بالمزروعات<sup>(١)</sup> .  
 ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطا  
 إن ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة صفد بعد حصار  
 ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصينا قويا وأضطر رئيس الداوية  
 التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكا، سالمين<sup>(٢)</sup> . فأمنهم  
 أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة<sup>(٣)</sup> .  
 على أن الفرنجة لم يلبشوا أن تقضوا الأمان ونكثوا العهد . فقد وجد بيبرس  
 عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض  
 سرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ ما معهم ثم ضرب أعناقهم  
 ، تل بالقرب من صفد . ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذي أسلم  
 لل في خدمة بيبرس ، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكا  
 نهر الفرنجة بما شاهدته<sup>(٤)</sup> .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267

(٢) King: The Knights Hospitallers in Holy Land p. 261.

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٠ ؛ وقد زاد على ذلك المفضل : كتاب  
 ج السيد ص ١٤٩ ، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم ، فان وجد مع أحد منهم شيئا  
 منعهم في أخذه انتقض العهد .

(٤) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السيد ص ١٥٠ ، يفهم منها أن  
 نود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان وإليك  
 بها (... حكي الأمير ركن الدين بيبرس العلاني أن السلطان لم يحلف لأهل صفد وإنما أجلس مكانه  
 ميون أغا التتري وأوقف الأمراء في خدمته ، حلف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذي لهم وكان  
 سرانيا ، فزولوا على يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه العيب  
 نريت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحووا من ألفي فارس) .

(٥) المقرئبي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٧ — ٥٤٨ ؛ هذا ، وقد كان الشخص الذي أسلم  
 دخل في خدمة السلطان فارسا من الداوية . أما الثاني الذي ذهب إلى عكا ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من  
 سان الأسبنتار King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

وهنا تبدولنا صورة يراها المطلع في ظاهرها غدرا ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تتخرج عن كونها جزءا طبيعيا من حلت بهم . فلم يتعد بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدرا لو أنه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه عهدا . أما وهم فقد نقضوا العهد فليس فعلة إذن من الغدر أو الخيانة في شيء . ولا معنى لحمل بعض المؤرخين من أمثال *Maier* هنا العمل من بيبرس على الغدر والتكث . وفي ذلك يقول ميور<sup>(١)</sup> " إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقا آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لا تنحصر عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التي لصقت بانسانيته بل بإيمانه " .

فهذا المؤرخ أصدر حكما قاسيا على بيبرس تجلت فيه الأهواء والميول وكفانا بالظاهر من صفات عالية وأخلاق فاضلة ووفاء بوعوده ، أنه لم يفعل مثل هذا بغير من حلت بهم ممن كانوا يطلبون الأمان فيؤمنون وأمثلة ذلك كثيرة في كل عذواته معهم .

ثم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صفد بعد أن حرب قلعتها ، غير أنه في السنة التالية أعاد بناءها واشترك في ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين تقتطف منها ما يأتي : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة ومحصنها وتكلمة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدي الفرنج الملاحين وردّها إلى أيدي المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى مسكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكائنات

بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكافر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين<sup>(١)</sup> ... ..“ .

فما تقدم نرى أن غزوات بيبرس انقلبت منذ سنة ١٢٦٥ م إلى محاولات في سبيل التوسع والفتوح . فاستولى على قيسارية وارسوف وسوى بحصونها الأرض<sup>(٢)</sup>، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هوينين (Chateaufort) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة<sup>(٣)</sup> .

وعند ما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سويس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦ م علم أن سكان قرية «قار»<sup>(٤)</sup> يتعدون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويديعون من تقع عليه أيديهم بيع الرقيق إلى الفرنجة بحصن عكاء . فلم ير الظاهر بدا أمام هذه الفظائع من الإغارة عليهم في عقر دارهم وضربهم ضربة شديدة، فأحرقت صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحولت كنيساتهم إلى مسجد وأخذ شبانهم مماليك في أيدي المماليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية<sup>(٥)</sup> .

بعد أن استقرّ مقام الظاهر بمصر توجه في جماعة من أمرائه إلى بلاد الشام . فنزل غزة ورحل منها إلى صفد وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ - ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages p.267.

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حصص . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٢ - ٥٥٣

(٦) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 24.

دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم . فعاد ثانيا إلى صفد<sup>(١)</sup> ، ثم حاول أن يفاجئ عكاه بهجومه ؛ فسير فرقتين من الخيالة متخفيين بأن ألبس عسكرا إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الخيلة لم تلبث أن كشفت أمرها ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة<sup>(٢)</sup> .

ونما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية في ذلك الوقت ترغب في عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛ فعقد الصلح مع أميرة بيروت ومدينة صور التي اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ، كما عقدت الهدنة بينه وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب<sup>(٣)</sup> . وقد أسهب القلقشندي في بيان هذه المهادنة ونكتفى هنا بذكر بعض ما وقع عليه الصلح بين الطرفين لتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولتعرّف أيضا حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه الهدنة على :

- ( ١ ) أن يكون أمده عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدئ من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ .
- ( ٢ ) ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٨

(٢) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262

(٣) ذكر العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت إلى الملك الظاهر وهو بصفد في شعبان سنة ٦٦٥ هـ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين إلى قبرس ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هؤلاء التجار ويطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٤) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التي أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد قتل بصور فقتل السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويرى ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٨

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٦) صبح الأعمش ج ١٤ ص ٣١ - ٣٩

( ٣ ) ألا يأخذ بيت الاسبتار الجزية التي كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماء وشيزر وأفامية وأبي قُبيس .

( ٤ ) أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والحماية" نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاسبتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هي أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها في الأهمية يطول بنا المقام في ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيرا من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصلبيين .

وفي السنة التالية ( ٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م ) وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكا ظهر بجأة أمام يافا في ٧ مارس سنة ١٢٦٨ م - وكانت المعاهدة التي بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦ م ولم يجددها مع ابنه (Guy d'Ibelin) <sup>(١)</sup> - فاقض عليها من غير سابق انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها . ثم سار السلطان شمالا قاصدا الشقيف أرنون التي كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصينا قويا ، فلم يستطع الوصول إليها إلا في ٦ أبريل من السنة المذكورة ، واستخدم في هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة أيام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها <sup>(٢)</sup> .

(١) ذكر النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عند ما قدم إلى صفا لبناء قلعتها وفد عليه مقدم يافا وطلب منه أن يجدد عقد الهدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

(٢) زاد العين (عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا بلغ أهلها إلى القاعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وقسم القاعة منهم .

(٣) ذكر المفضل (النج السديد ص ١٦٤ - ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتلخص في أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من القرنجة المقيمين بعكا يتضمن إفادة التراب =

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية؛ فسار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها، ولم يستطع الأمير بيموند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة،<sup>(١)</sup> ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاء صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فلم يعترض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماة؛ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه، وبدأ يهاجمها في أوائل مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ)، واقتتل الفريقان قتالا شديدا أسرا أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس في ذلك الوقت يرغب في عقد الصلح لوقف تيار القتال حقنا للدماء التي تراق، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذي أسره في أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة؛ غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بدا من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها في وجه السكان، وأنقض عليهم ذبحا وقتلا وأسرا . وكان عددهم نيفا ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس .<sup>(٢)</sup>

وحين رأى رجال الحامية - وكان عددهم ثمانية آلاف - أن المدينة وقعت في أيدي المسلمين، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها في اليوم التالي على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام .<sup>(٣)</sup>

- بالشقيف أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتابا يذكر فيه أمارات بيته وبين أهل عكا ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسماؤهم في الكتاب ، كما أرسل كتابا آخر للوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره فيه بأنه إن احتاج إلى المال يأخذه من ذلك ذكر اسمه في الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه الكتب وقع اختلاف بينهم في الوقت الذي كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف .

(١) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٧

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

(٤) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263.

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذي أنزله بالمدينة بل أسرجامية القلعة ووزع<sup>(١)</sup>  
أفرادها على الأمراء . ثم أرسل إلى يميند - وكان إذ ذاك بطرابلس - رسالة تهكم  
يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات التقريع والسخرية .  
وقد أوردها كل من النويري ، والمفضل ،<sup>(٣)</sup> والعيني ،<sup>(٤)</sup> وسنكتفى بذكر بعض فقراتها  
لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد  
الضمرغام يميند نحر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية ... ما كان من قصدنا  
طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وماشاهده بعد رحيلنا من إحراق العائر والأعمار،  
وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض ... وكيف قتلت الرجال واستخدمت  
الأول وتملكت الحرائر... وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والمواشي ، وكيف  
استغنى الفقير وتأهل العازب ... وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ...  
وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى  
لدينا جارية ... وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم رحلنا  
عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا

(١) يفهم من عبارة النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد، والمفضل :  
كتاب النهج السديد ص ١٧١ - ١٧٢ ، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن يأخذهم أسرى .  
واليك نص عبارة النويري " ...وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريرم والأولاد فتحاشروا  
بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون  
أسرى فالوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القاعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة ؛  
فاستأنوا للسلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى " .  
أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافا كبيرا فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويري ، لذلك نكتفى  
بالإشارة إليها .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ - ٣١١

(٤) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ - ١٧١

(٥) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ - ٥٤٢

بأنطاكية في مستهل رمضان . وفي حالة النزول خرجت عساكرك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصرُوا ، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل في مراجعة أقرانك ودخل إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا فرأيناهم إلى رأيك من إتلاف النفوس بالعرض الفاسد ... فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر ... فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ... وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب خيرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبرا .

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمر بدر الدين بيليك الخازندار والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، ثم أمر باحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه .<sup>(١)</sup> وعلى أثارته من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة ؛ وبذلك تركها أثرا بعد عين .<sup>(٢)</sup>

هزت كارثة أنطاكية جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا الحصن خاليا ، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها ، ثم أعدّها بالعدة والرجال ، وأصبحت منذ ذلك الوقت في عداد الحصون الإسلامية .<sup>(٣)</sup> كذلك حال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا في موادة الظاهر كيلا ينادم ما نال إخوانهم ؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضات في الصلح ، وبدأت المفاوضات فعلا ؛ ورافق بيبرس سفراءه في زى خادم ليتعرف خباياها ويدرسها تمهيدا لمحاصرتها فيما بعد ، وكذلك عكا — وهي البقية الباقية من دولة

(١) زاد على ذلك العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٩ هـ ، فقال إن ماخص بيبرس من غنائم أنطاكية أرصده لعارة الجامع الذي أنشأه بالحسينية بالقاهرة .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ المقرئى : السلوك

ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٨ (٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

بيت المقدس — طلبت المفاوضة والصلح<sup>(١)</sup> فقدمت رسل صاحبها إلى السلطان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه في هذا الأمر<sup>(٢)</sup> . فتقرر عقد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكا مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيداء على حالهما . غير أن هذه المواد عند ما عرضت بعكاء لإقرارها لم تصادف قبولا<sup>(٣)</sup> .

أما بلاد صور فقدم أغار عليها بيبرس قبل أن يعود إلى مصر في أواخر يولية سنة ١٢٦٨ م . وعلى الرغم من أنه كان من سياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية ، فإن البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادنة . وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى في ربيع سنة ١٢٦٩ م على أراضي عكا وصور ، وساهم بيبرس بنفسه في هذه الحركات وتمهادن مع بيروت وما جاورها من البلاد<sup>(٤)</sup> .

لم تفرهمة بيبرس الحربية عن مناوأة الصليبيين ، فكان يستولى على معاقلمهم الواحد بعد الآخر رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا<sup>(٥)</sup> . وكان السلطان ينظر دائماً إلى بوهمند السادس كأكبر خصم له . والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين ، فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمداً إلى إتمام إسقاطه بالاستيلاء

(١) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤ هـ

(٣) يفهم مما ذكره المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٧١ في هذا الصدد أن السلطان أرسل إلى صاحب عكا محيي الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكا على هذه المعاهدة وكان معهما هدية فيها عشرون نفسا من أسرى أنطاكية ، فلم يوافق على بعض موادها .

(٤) أورد العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠ ، السبب الذي من أجله أغار بيبرس على مدينة صور ، فقال إنه عند ما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءت امرأة في أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنتها دخلت صور غدربه صاحبها وأخذ ماله ، فركب السلطان وشن الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة .

(٥) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 342.

(٦) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

على طرابلس . وكان من الضروري قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية ، لذلك شرع في الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ في محاصرته في شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١ م) ، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها في ٣٠ مارس من السنة المذكورة ، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة ؛ فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم .

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية بحياتهم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة ؛ فلم ير المسلمون بدا من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملجأ الأخير لهؤلاء الفرسان ، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة . لذلك أرسل إلى الحامية خطابا مزورا<sup>(١)</sup> على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوسبتاليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن . وكان من أثر ذلك أن فتح الهوسبتاليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم . وفي اليوم التالي ساروا إلى طرابلس<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار<sup>(٣)</sup> وهو صاحب حصن الأكراد — كتابا هذا نصه : ” إلى (افرير أولك) جعله الله ممن لا يعترض

(١) ليس هناك في المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطابا مزورا لحامية حصن الأكراد . ونحن نستبعد ذلك على بيبرس . ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقية لأشار إليها Stevenson, Muir خاصة كثيرا ما ينحى باللائمة على بيبرس في بعض موافقه . وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سلموا القلعة وطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس .

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار في هذه السنة . Hugh Revel . King: Op. Cit p. 271

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦ ؛ العيني : عقد الجمان

على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا نعتقد أنه ينبغي من أمر الله بالقدر ولا يحيى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر. نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنته وخائسته وكنت الموفق لو أخليتته واتكلت في حفظه على اخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيدنا وتشقى“ .

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح والاستكانة خير ما تستطيع أن تكسب . فلم يكذب بيبرس ينتهي من حصن الأكراد حتى سارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح وبعث مفاتيح حصنه إلى السلطان، فصالحه على أن يرسل إليه نصف ما يتحصل من غلال بلاده . وعين والياً من قبله على هذه البلاد . كذلك قدمت إليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس، وقرر أن تكون الهدنة بينه وبينهم لمائة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام<sup>(١)</sup> .

ولما تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكراد رحل إلى حصن عكار<sup>(٢)</sup>، وبدأ هجومه عليه في ١٧ رمضان سنة ٦٦٩ هـ ( ٢٩ إبريل سنة ١٢٧١ م ) وشدّت عساكره الحصار . وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان ؛ فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حياتهم<sup>(٣)</sup> . وبذلك تمكن من الاستيلاء على هذا الحصن ثم استعدّ ليهاجم طرابلس بنفسه . ولكن أخبار

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالي طرابلس وهو مبني على جبل بنفس الاسم .

Le Strange: Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧.

قدوم الأمير ادوارد وبعض الصليبيين الى عكا في ٩ مايو سنة ١٢٧١ م جعلته يرضى بعقد الصلح .<sup>(٢)</sup>

على أن بيبرس قد شرع فعلا في مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكرها وشددت الحصار عليها ، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يقول له : ” ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض ؟ “ . فقال : ” جئت لأرعى زرعكم وأحرب بلادكم ثم أعود الى حصاركم في العام الآتي “ . فأرسل اليه أمير طرابلس يستعطفه ويطلب منه عقد الصلح ، فسير اليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار بمقترحات لعقد الصلح ، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال وقال للأمرين : ” إن السلطان لما أخذ أنطاكية مني بالسيف كان عذرى مبسوطة عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب ( كذا في الأصل ) مني أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجد خوفا من الفرنج أن يعيروني بتسليمى البلاد من غير حرب وقتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بي أن أسلم اليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج “ . فعاد الأمير سيف الدين الى السلطان وأخبره بذلك ، فرأى أن يعامله بالحسنى ويتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس فتكون مناصفة بين

(١) هذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على إنجلترا باسم (Edward I) . وقد أبحر من Southampton في أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبه ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مراكبا ، فلما وصل الى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر الى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير ادوارد الى قرطاجنة ووصل الى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف الى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ثم أبحر فى الربيع الى عكا . King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268.

(٢) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343 ; King, The Knights

Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

(٣) المبنى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦ هـ

السلطان والداوية والاسبتارية، فرفض بوهمند أيضا هذه الشروط، فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا، فلم ير بوهمند السادس بدا من من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس الى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين، وذكر له ما فتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه . وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنقرني عنه وتملاً قلوب عسكري رعباً<sup>(١)</sup> .

وهكذا تم للظاهر الكثير من رغباته وآمابه من الصليبيين الذين كان يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها الى حوزته . وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الجدية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . ففي أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصقند فسار منها إلى حصن القرين<sup>(٢)</sup> وهاجمه حتى استولى عليه في ١٢ يونيه . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ - ١٩٥

(٢) مدينة في جبال عاملة (وهي من جبال لبنان) المطلة على حصن . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يقع هذا الحصن بالقرب من صفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg

King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271

وقد ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ - ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم اليه رسولا صاحب قبرس وطرابلس وتحدثا معه في الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : " البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك في هذا الحصن وسألك أن ترحل عنه " فقال السلطان : " كلامه عندي مقبول ، ولو جاءني رسوله قبل نزولي عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكنني الرحيل عنه " . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرس فقال : " صاحب قبرس سيرني لأنظر إلى السلطان هل رحل أم لا ؛ فإنه بلغه أنت العساكر تقدمت إلى مصر " . فقال السلطان : " رحلت من عسكري الأتقال والضعفاء ، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة تقضيها له فإنه عندنا ضيف ؟ " فقال الرسول : " لم يأمرني بشيء " . ثم مضى وعاد فقال : " حاجته عندك أن تدفع له بعلبك ونابلس " ، فقال له السلطان : " إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأزل وتطلبوا مني حصوني ؟ " .

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, pp. 343-344.

المسلمين طلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وقزر نحر وجههم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحاً<sup>(١)</sup>. ثم سار السلطان إلى أبواب عكا، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكا وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندي؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه، فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للإستيلاء عليها؛ غير أن هذا الأسطول مالبت أن حطمته عاصفة عند شواطئها. وفي شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدّم الأمير إدوارد وهيو ملك قبرس إلى الناصرة، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين، غير أن أملهما هذا لم يتحقق، فاتّهب إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر في شهر يولية من هذه السنة وأغار على الرملة واللدّ<sup>(٣)</sup>.

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون في عكا بإغاثة أخرى على البلاد المجاورة لفاقون<sup>(٤)</sup> (Kakun) عندما كان السلطان منشغلا بصدد غارة التتار في نوفمبر من السنة المذكورة؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسي فردّهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارساً<sup>(٥)</sup>.

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس في جهات عكا وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الحديد من أوروبا ولرغبته في التفرغ لصدد غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام. فاتفق مع رسل صاحب

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ - ورقة ٩٩

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٣٢

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن بفلسطين

بالقرب من الرملة. ياقوت: معجم البلدان.

(٥) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٥

ضور على تقسيم بلادها بينه وبين الفرنجة<sup>(١)</sup>، وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام<sup>(٢)</sup>

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان في كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم ويهزم جيوشهم ويستولى على حصونهم ومدنهم وأخذة تلو أخرى . ولم نرهم في أية موقعة نالوا منه شيئاً أو كتب لهم النصر عليه . وأسباب ذلك لا تخفى على الباحث إذا ما جال ببصره مدققاً في حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التي حلوا بها وقتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم وبذلوا في سبيلها كل مرتخص وقال . ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم في البلاد الشامية حتى آل أمرهم في نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء في حصن أو حصنين :

(أولاً) كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم في الدين متنافسين متحاسدين ، قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع ، وذلك مما كان يؤدي إلى فشلهم في حروبهم .

(ثانياً) لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع ويدينون له بالطاعة ، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذي من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائبة عن أوطانهم .<sup>(٣)</sup>

(١) وضع المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٩٥ . هذا الاتفاق فقال إنه تقر بأن يكون للفرنجية من بلاد صور عشرة بلاد ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم وبينه .  
Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, (٢)  
p. 269.

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (٣)  
(Introduction) pp. XXX - XXXI.

(ثالثا) كانت مصالحتهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التي أتوا منها إلى تلك الديار. وقد تجلّى هذا الأمر في الفرسان المختلفين، وكثيرا ما كان يقاتل بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>. وفي هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوّهم ما لا يخفى.

(رابعا) نقض الصليبيين العهود التي كانت بينهم وبين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل.

(خامسا) مخالفة الصليبيين لولا كوزعيم التتار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة الممالك في مصر ومهاجمة بلادهم. وقد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سببا في تحالف الظاهر مع بركة خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد.

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الصليبيين في غزواتهم وهزيمتهم في حروبهم. وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه. ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم، فكان الفشل المحتوم نصيبهم.

### (ب) غزوة جزيرة قبرس :

كان أهل قبرس كثيرا ما يمدّون الصليبيين ببلاد الشام بالمال والرجال. ولا عجب في ذلك فهم أهل ملة واحدة يجمعهم دين واحد. فليس غريبا إذن أن يقوم هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم في الدين، ولا سيما أنهم كانوا جميعا من الفرسان المتعصبين لدينهم المتحمسين ضدّ أعدائهم المسلمين. وكانوا لهم رداء كما دأبهم خطر من الأخطار، بل كانوا واسطة اتصال بينهم وبين مواطنيهم من أهل أوروبا.

لذلك نرى بيبرس بعد إغاراته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولا لمحاربة قبرس التي ساعدت عكاء مساعدة جديّة<sup>(٢)</sup>. وكان أهلها لما نزل السلطان على حصن

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١)

Sir William Muir, Op. Cit. p. 28. (٢)

(Introduction) p. XXIX

الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة، فخرج إليهم في عثة  
مراكب، فهاج عليهم البحر وحطم ستين مركبا وتابع ما بقي منها السير إلى عكا<sup>(١)</sup>؛  
فأراد بيبرس أن يغتم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى  
قبرس، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٢٩ هـ (١٢٧١ م)؛ غير أن عاصفة شديدة هبت  
عليها بالقرب من الجزيرة فحطمت منها أحد عشر مركبا عند نهر النسون  
(Limassol). ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها  
من المسلمين<sup>(٢)</sup>.

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث  
لأسطوله، إذ قال له: "إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك"،  
فقال السلطان: "قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيفي، ولو سلموا المراكب لأخذوا  
جزيرته بحول الله وقوته. وقد أخذت في سفرتي هذه أربعة عشر حصنا. ولا شك  
أن العين لها حق والحمد لله الذي فدى عسكري بالملاحين والعوام وأرجو من الله  
تعالى تعويض ذلك"<sup>(٣)</sup>.

لم يكتب بيبرس بما قاله لهذا الرسول، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتابا  
جاء فيه: "إلى حضرة الملك (أوك) ... .. جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا  
يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله. نعلمه أن الله إذا أسعد  
إنسانا دفع عنه الكثير من قضاائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير.  
وقد كنت صرفتنا أن (الهواء) كسر غدة من شوانينا ... .. ونحن الآن نبشره بفتح  
القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكتنا من العين.  
وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة

(١) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٢) بيبرس الدردار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩؛ العيني: عقد الجمان للمجدد

الثالث ورقة ٥٦٤

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٠

هو العجب ... وما النصر بالهواء ملبح إنما النصر بالسيف هو الملبح وإن عدت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ... وأتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ... فائن كتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخذنا بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا فيرى أينما أغتم . ولو أن في الملك سكوتنا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم<sup>(١)</sup> .

لم تفرهمة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله ، بل شرع في إنشاء أسطول آخر<sup>(٢)</sup> غير أنه لم يعاود الكرة في مهاجمة جزيرة قبرس لإنشغاله بحاربة الصليبيين والمغول . وقد تمكن في سنة ٦٧٣ هـ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس ، فأرسل الرسل إلى صور لا بتياعهم ، فتغالى الفرنجة في بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرامة لطائفة منهم ، فلم يرببرس بدا من إغراء الموكلين بحراستهم بالمال فأطلقوا سراحتهم وساروا إلى القاهرة . فلما علم بذلك الفرنجة بعكاء قامت القتنة<sup>(٣)</sup> بينهم .

### (ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

كان يقطن ببلاد الشام في الوقت الذي عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية في الشرق طائفة من الاسماعيلية حاول صلاح الدين عبثا القضاء عليها وظلت

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ - ١٠١  
(٢) المقرري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦١٥ (٣) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ٦ (٤) الاسماعيلية هي فرقة من الشيعة عرفت أيضا بالسجعية لأن أصحابها اعتبروا الإمامة متقية عند الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ في حياة أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر الأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية ، فلبسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨ هـ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم الحشاشيين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) في الشمال الغربي من بلاد فارس ، ثم تفرع من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب . Ismailiya و Enc. Isl. Arts: Assassins وهذا الفرع الشامي هو الذي حوّل بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاته تمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون الى ممالأة هؤلاء الاسماعيلية<sup>(١)</sup>، وتعدى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم ويعملون على اتقاء شرهم بالهدايا التي كانوا يرسلونها اليهم والتي رأى بيبرس أن يفرض رسوما عليها ليقلل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك<sup>(٢)</sup>.

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت الى جانب الصليبيين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان الهوسبتاليين، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يمتنع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التي كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمرأه حماه وشيزر وأفامية<sup>(٣)</sup>. وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزودة بالأموال التي كانوا يحملونها من قبل للفرنجة<sup>(٤)</sup>.

ولما رأى نجم الدين الشعرائى صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التي يقدمها لسلطان مصر كثيرة أرسل اليه يستأذنه فى إنقاصها. وكان بيبرس فى ذلك الوقت مستاءا منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية، فأمر بعزله هو وولده وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة بلاد الدعوة الاسماعيلية<sup>(٥)</sup> على أن تكون مصياف<sup>(٦)</sup> وبلادها خاصة بالسلطان؛ ثم أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير

(١) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ ؛ المقرئى : السلوك ص ٤٣

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262; Steven-

(٤) son : The Crusaders in the East p. 340. المقرئى : السلوك ص ٥٥٧

(٥) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام .

(٦) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام وهي واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من

حصن . ياقوت : معجم البلدان p. 507 Le Strange : Palestine under Moslems,

عز الدين العديني فامتنع أهلها عن تسليمها. أول الأمر ، ولم يباشروا بعد ذلك أن فتحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ، فلم يرتجم الدين وولده بدا من الدخول في طاعة بيبرس ، فطلبوا منه السماح لهما بالحضور بين يديه فأجابهما السلطان الى طلبهما . وعندما قدم اليه نجم الدين وولاه حصون الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين ألف درهم ، كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار<sup>(١)</sup> . ثم أخذ السلطان بعد ذلك ( ١٢٧٠ - ١٢٧٣ م ) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر<sup>(٢)</sup> ، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس في مقابل ذلك بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها . فكان في هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه ردحا من الزمن . ومن العجيب في أخلاق بيبرس أنه بعد إجلالهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه<sup>(٣)</sup> .

### ( د ) علاقة بيبرس بالمغول :

#### ١ - مغول فارس :

لم ينس المغول ما حل بهم في موقعة عين جالوت ، فظفروا باليون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها . فرأى بيبرس أن يتحالف مع بركة خان سلطان مغول

(١) التويرى : نهاية الأدب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ القرزى : السلوك

ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270. وقد أورد القرزى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه

على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الإسلام وشرائعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاء كونه ويرجع ذلك

اعتد أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاء كونه ببلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك

لم يرق في عينه تأسيس دولة هولاء كونه بفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع

أنهما كانتا من إرث جوشي أبي بركة حسب رغبة جنكوش خان (Enc. Isl. Art. Berke) . وهناك سببان

آخران لهذه العداوة التي كانت بين بركة وهولاء كونه ؛ أولها عدم مظاهرة بركة للخان الأعظم قوبلاي

القفجاق ضد اياخانات فارس ؛ غير أنه لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل ضرب الطرق والوديان المؤدية الى الشام حتى لا يجد المغول اذا تقدموا ما يحتاجون اليه من الميرة<sup>(١)</sup>، كما أن هولاء كو تحالف مع المسيحيين في الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصلبيين لكي يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر .<sup>(٢)</sup>

وقد كان لكل من التتار والصلبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف . فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم في الحروب ضد الدولة التي هزمتهم بالشام — وهي مصر — وردتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم في غزوهم . والصلبيون لم ينسوا الأمر الذي من أجله احتلوا المدن الشامية ، كما لم ينسوا ذلك العداة الديني بينهم وبين المسلمين ، فأرادوا هم أيضا أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيرا في اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعا يدا واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين .

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطانا كالظاهر يظمن على بلاده في الوقت الذي كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر . ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة ، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التي كانوا يغيرون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك .

ففي سنة ٦٦٣ هـ ( ١٢٦٥ م ) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق ، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيفان

== وانتصاره لأخ صغير له اسمه (Arigha-Buga) ؛ فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر ، واثنيهما أن هولاء كو منذ أن صار بركة ملكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولي نصيبه المعتاد من مغنم الحرب . ( وكان المعتاد أن يجمع التتر ما يحصل من البلاد التي يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام : قسمان للخان الكبير ، وقسمان للعسكر ، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق ) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٠١ — ١٠٣

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, (١)

p. 266.

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226 (٢)

الملقب بسم الموت ، ثم سار على أثره إلى أن وصل إلى غزوة . وهناك علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها ولى التتار هار بين وتركوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعممة سائغة لخنده .<sup>(١)</sup>

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعمارة منارح من البيرة وبجمل آلات القتال إليها من مصر والشام وباعداد كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشرين سنين . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التي رماها التتار فيه . وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه ما لقوه من شدة وعناء في إخلاء ذلك الخندق ، فكتب إليهم : "إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أتم في ضيق ونحن في سعة ، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوتنا في هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور"<sup>(٢)</sup> .

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التي كانت تتوالى على نواحي متعددة من بلاده ، كما تبين لنا ملاحظته لأمرائه وتشجيعه لمن تدمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم في غزوهم ، وأن غيرهم من بقية الجيش لا ينالهم من العناء مثل ما يلقون ، كما يتضح لنا أيضا ما تنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجهد في محاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تم أمانيه ويريح بلاده من غاراتهم وإفسادهم في الأرض .

وهكذا ظل المغول في فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م)<sup>(٣)</sup> وخلفه ابنه أباقا الذي سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٢٥ .

(٣) اختلف المؤرخون في اليوم الذى توفى فيه هولاكو ، ففى أبى الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢ أنه مات فى تاسع عشر ربيع الآخر ، وفى مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٤٥ صابع ربيع الآخر ، وفى المقرئى : السلوك ص ٥٤٤ ، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفى فى يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر . (٤) ورد هذا الاسم فى المصادر العربية أباغا ، أبغا .

الصلبيين ؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus) ؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين . غير أن علاقته بالبابوات والملوك المسيحيين في أوروبا كانت سياسية أكثر منها دينية ، فكان يرسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذي كتب إليه كتابا سنة ١٢٦٧ م ، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤ م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسيسكان عام ١٢٧٨ م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للغول . أما الغرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدة <sup>(١)</sup> .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشترك الذى كان يهدد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاء كالمغولية ، وسنرى أنها واصلت انتصارها على جند ابنه أباقا الذين كانوا ينتهزون فرصة اشتغال الظاهر بحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ ( ١٢٦٦ م ) أثناء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صنفد إذ أغاروا على الرحبة ، غير أنهم <sup>(٢)</sup> بالبشوا ان ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداء كان مستحكما بين المغول والمماليك في ذلك الوقت ، فقد فكر أبغا في سنة ٦٦٧ هـ في عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له في ذلك صاحب سيس ، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف في هذه السنة كتابا ينيثه فيه بأن رسول أبغا يود مقابله ، فبعث السلطان أميرا من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق ؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه تاب أبغا وقد جاء فيه :  
 "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه

(١) Browue, A Literary History of Persia Vol. III pp. 18-19

(٢) بلدة واقعة على نهر الفرات .

هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا،  
فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا<sup>(١)</sup> .

غير أن هذه الرغبة في عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا:  
”اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أترتع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من  
بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض“<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع  
الصلبيين في السنة التالية على الاغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقما  
بالأسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل، فوردت عليه الأخبار بأن التتار  
أغاروا على الساجور<sup>(٣)</sup>، فسير الأمير علاء الدين البندقدار إلى بلاد الشام على رأس جيش  
كبير لمحاربتهم . وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق  
بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين<sup>(٤)</sup> .

غير أنهم عاودوا الكرة في سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم —  
وكان الظاهر إذ ذاك مقما بدمشق — فلما رأى جدتهم في إغارتهم، أرسل إلى مصر  
يستدعي الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وثلاثة آلاف فارس لطرد التتار وردّهم إلى  
بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب،  
وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهاء فريقا من جيشه على رأسه أحد الأمراء<sup>(٥)</sup> .  
وسار السلطان إلى مصر لمسا علم بإغارة الصليبيين على قاقون، وظل أمراؤه يحاربون  
التتار حتى استولى الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى على حران، ثم عبر الفرات وعاد  
إلى مصر، فانتهمز التتار فرصة غيابه وقدموا إليها وهدموا أسوارها<sup>(٦)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٤

(٢) العيى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩

(٣) نهر بجهاى منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان

• Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٨٤

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥

(٦) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطالب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغاً<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية التي اتبعتها بيبرس إزاء سلطان المغول في فارس، فإنه بلغه في العام التالي (٥٦٧١هـ) - وهو ببلاد الشام - أن التتار قصدوا الرحبة وتقدموا منها إلى البيرة، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال. ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر، ثم شرع هو وعساكره في عبور الفرات وألقى المراكب في النهر، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان في النهر، وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار، وهناك أخذت جنوده في مناوشتهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً<sup>(٢)</sup>، ثم عاد السلطان وعساكره في النهر. ولما وصل إلى الشاطئ الشرقي من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فسار إليها ومنح واليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق<sup>(٣)</sup>.

لم يرد التتار بهذه الهزائم التي كانت تنزل بهم، إذ نواهم في سنة ٦٧٢هـ يشجعون في الإغارة على بعض البلاد في الوقت الذي قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام. ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغاً قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعي جيوشه فلاحقت به عند يافا، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق، غير أنه لما تقدم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٠٢

(٢) مفضل بن أبي الفضائل: آب النهج السديد ص ٢١٢ - ٢١٥

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٣٤

(٤) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢١٧ - ٢١٨

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاها آخر في مناوأة بيبرس ، فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفا من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه<sup>(١)</sup> . غير أنهم ارتدوا عنها عند ما بلغهم تقدم السلطان إليهم . ويرجع السبب في ذلك إلى خروج البرواناه عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده . وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه ، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قليج أرسلان<sup>(٢)</sup> . غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين<sup>(٣)</sup> . ولما علم بتقدم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمدّه بجيش من المغول ، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر ، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكريا ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبى السلطان بيبرس طلبهم . وفي هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية<sup>(٣)</sup> فقال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر . وعند ما وصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة . وظل البرواناه مقيا بقيسارية ، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر<sup>(٤)</sup> .

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب . أبو الفدا : ج ٤ ص ١٠ ؛ وكان في يد معين الدين هذا مقاليد الحكم في الدولة السلاجقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قليج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ . Enc. Isl. Arts : Kildj Arslān IV, Mu'īn al-dīn Sulaiman Parwāna.

(٢) مدينة بلاد الروم اسمها الحالي البستان وهي قومية من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange: Palestine Under Moslems p. 277.

(٣) قيسارية أو قيصرية : اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وبشمال إفريقيا وأسبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطئ على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبي حيفا ، ومنها قيصرية الروم وهي المقصودة هنا وتقع على نهر قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك . ياقوت : معجم البلدان ؛ (Enc. Isl. Art. Kaisariya)

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

على أن أهم الوقائع التي دارت بينه وبين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع في السفر في رمضان سنة ٦٧٥ هـ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذا لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر، فوصل إلى دمشق ورجل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتار والروم على لقائه ومحاربتة ، فرتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصبت عليهم الخيول الإسلامية من الجبل انصباب السيول وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا، وانجحت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار .<sup>(٢)</sup>

ولما انتهت الموقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها، ثم لم يلبث بعد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير نفرح الأهالي يتقدمهم القضاة والأشراف ، وقابلوه في موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فنزل بدار السلطان ، ثم جلس على عرش قيسارية حيث تولى السلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبل عليه الأهالي فقدموا له فروض الطاعة، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية وقسم ثروة البرواناه على جيوشه .<sup>(٥)</sup>

ولما فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة ، ثم رأى أن بقاءه بها ربما كان خطرا عليه وعلى البلاد الشامية لتوقع معاودة التتار بمجموعهم انتقاما لمن قتل من جيوشهم وتخليصا لمن أسر من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٢٧ — ٦٢٨

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٨

(٣) ابن شاکر الکتبی : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (٤)  
p. 28.

Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (٥)

p. 271

رجالهم ، فرحل إلى الأبلستين ومصر على مكان المعركة ليرى جثث القتلى من التتار ، وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم . وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار كثرة من قتل من التتار <sup>(١)</sup> .

وقد كان ما توقعه بيبرس . فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين . ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه ، <sup>(٢)</sup> وتغير على البرواناه عند ما علم أنه كان السبب في حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم ، <sup>(٣)</sup> ثم رحل إلى قيسارية ليثار بلحيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها . وعند ما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مساهمها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجالة والترحاب وقتل منهم خلقاً كثيراً <sup>(٤)</sup> .

أما عن موقف البرواناه في ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معه إلى معسكره على أثر انتهائه من قيسارية ، وهناك استشار أمراءه في أمره فأشار عليه فريق منهم بقتله ، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه نجاجها . وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه ، غير أن نساء أمراء المغول الذين قتلوا في المعركة عند ما علمن بذلك اجتمعن وأقن ثورة في وجه أبغا ، فكلف أميراً من بلاد سييس بأن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان معين ثم يقتله ، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغا يود أن تركب أنت وأصحابك معه ، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان ، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضأ ويصلي ، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه <sup>(٥)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٢) Brown, A Literary History of Persia, Vol. III, p. 19 ، مفضل بن

أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٠ (٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢ . (٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave

Dynasty of Egypt, pp. 28-29 . (٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤ ؛ مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٣ — ٢٧٥

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته الى مقاتلة التتار وقد تحمل هو وجيشه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات ما يجعله حقيقا بالاستماتة في الدفاع عن هذا البلد وتخليصه نهائيا من يد التتار ، وعلم ما حاق بهم من جيوشه والسبب الذي من أجله هاجموا المدينة بعد أن هزموا عندها . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض الموقعة ومسيره الى حارم أمر بتسيير جيشه الى مصر ، وانتقل هو أيضا من حارم ذاهبا الى دمشق . وفي هذه الآونة انقضت أيضا على المدينة ، ولم نتح الفرصة للظاهر أن يتراجع اليها ليقيا شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها ، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاتى الجيش في هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس الى قيسارية بعد مغادرتها ، ذلك أنه بعد أن فارقتها الى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردّهم على أعقابهم

## ٢ - مغول القفجاق :

لم تكن العلاقة بين بركة خان والظاهر كما كانت بينه وبين هولوكو وخلفه . ولا عجب إذا رأينا القبيلة الذهبية<sup>(١)</sup> تتخالف أبناء جلدتها من التتار وتدخل في حلف

(١) لما قسم جنكيز خان امبراطور يته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبناءه البلاد الواقعة بين نهر آرئش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القفجاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى . وكان غالب أهلها تركا وتركان . ولما مات جوجى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) انقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وقانيم باطو (Bātū) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلته ملكا عليها واعترف بذلك جنكيز خان نفسه قبل مماته . لهذا انكش سلطان أوردا الى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde) . وكان مركز ملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذها عاصمة سماها (Sarāi) وهو الذى غزا أوربا فتوغل =

مع المماليك بمصر مع ما هم عليه من العداة لآخواتهم لئلا فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام<sup>(١)</sup> . وكان لإسلامه وما كان بينه وبين المماليك بمصر من الصلات الوثيقة أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي تلك القبيلة . فقد هذا حذوه الكثير من زعماء المغول في هذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيواتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاء أعدائه<sup>(٢)</sup> .

ولما علم بيبرس بإسلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاء<sup>(٣)</sup> . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة وبينه من العداة ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاء كومع

= في روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠ هـ) [١٢٣٧ — ١٢٤٠ م] ، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجي خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك بلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقها وغربها ، فأصبح يعدل في السلطان والعظمة الخان الأعظم ما نجوخان الذي خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطو خان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفي في نفس تلك السنة ، فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجي خان . Enc. Isl. Arts : Gingsis Khan, Bātū Khan, Bereke.

(١) يقال في سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع غير للتجارة آتية من بخارى فاختلف بتاجر من منهم وسألها عن الإسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاختصاص له . وقد كاشف أول الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام وحبب إليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين الجديد . ويذكر الجوزجاني الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته . ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . ويذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلحا ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس في جيشه سجاد للصلاة حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن في جيشه من يتعاطى أي مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدنيابة تشغل أكثر مجالسه ، كما كان سنيا مغاليا شديدا التمسك بدينه . Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 228-229.

على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت منذ سنة ٦٦٠ هـ

(١٢٦١ م) كرسيا لأسقفية مسيحية . Enc. Isl. Art : Bereke .

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240 .

(٣) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٥

الصلبيين ضد سلطان مصر، فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الاسلام — في كفة واحدة ضد عدوهما المشترك الذي يريد الإغارة على بلادهما والقضاء على دينهما .

وقد دخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس الذي ابتداء تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية، يبلغ عددها المائتين، وكانوا قد فزوا إلى سورية لما ظهر لهم من العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاءكو، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه<sup>(١)</sup> وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق وهي المعروفة الآن بباب اللوق — كما سيأتي — وبعث إليهم الخلع والأموال، وأمر كبراءهم وأدج بعضهم في سلك الممالك ومنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثروا وافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم<sup>(٢)</sup> .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه ” ... فليعلم السلطان أنني حاربت ( هولاءكو ) الذي من لحمي ودمي لإهلاء كلمة الله العليا نعصبا لدين الإسلام لأنه باغى ( كذا في الأصل ) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصاصي ورسلي صحبة رسل السلطان ... ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنه كان حاضرا في الواقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجاب القتال ، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعدات ، لأنه أقام إماما من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله ، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما باغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار ... ”<sup>(٣)</sup> .

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) العمى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

أرسل إليه السلطان الرّد في سبعين ورقة بغدادية<sup>(٢)</sup> . وأنفذ إليه هدية مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودي والشريف عماد الدين الهاشمي ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن امبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان<sup>(٤)</sup> ، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه ؛ فأخذ السلطان إقراراً منهم بذلك وأرسل إلى الامبراطور راهبا يونانيا ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتاباً أظلم فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسس إلى الامبراطور أطلق رسل الملك الظاهر<sup>(٥)</sup> ، فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزويني فأنزلهم في منزلة

(١) ذكر ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب " أن بيبرس جمع في هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاعراء على ( هولاكو ) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هي عليه وأهلها من حب الجهاد في سبيل الله تعالى ... " .

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . يستعمل في كتابة المصاحف ومكاتبه كبار الملوك . وفي ذلك يقول الفلقشندي ( صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦ ) " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ؛ وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها " .

(٣) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ؛ أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات للصلاة متنوعة الألوان وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السيد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهي القليل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس بركة ، وكذلك بعض الملابس والأواني الصينية .

(٤) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية في طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل باليووجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ، غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولاكو قد وصل إليه في ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم في التوجه إلى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده سنة وثلاثة أشهر مات في أثنائها الحيوانات التي أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٩٨ و ٥١٤

حسنة، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته . وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذي أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته . ولما فرغ من ذلك احتفل بقدمهم وأضافهم عند زوجته ( بجك خاتون ) وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدث إليهم في بعض الشئون، وطلب منهم أن يذكروا له شيئاً عن النيل وعن الأمطار في مصر، كما سأهم عن الفيل والزرافة اللذين كانا ضمن الهدية التي أرسلها بيبرس إليه، ثم عادوا إلى مصر بعد ما أقاموا عنده ستة وعشرين يوماً،<sup>(١)</sup> وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة في بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن في المدارس<sup>(٢)</sup> .

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التي تبودلت بينهما . والتي كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان<sup>(٣)</sup> . وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥ هـ .

وفي عهد خلفه منكوتمر<sup>(٤)</sup> انتمت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولوكو والقضاء عليه ، فأرسل بيبرس في سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتاباً يغريه فيه بقتال أبقا<sup>(٥)</sup>، وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولوكو من أراضي المسلمين، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس . وقد حمل هذه

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولداً فأل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه

باطو خان (Enc. Isl. Art. Berke)

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٢٧

الرسالة إلى بيبرس عتة رسل من بيت بركة - وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم ، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عمكاه . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار الأجانب بالأسكندرية من السفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحابهم من هؤلاء الرسل<sup>(١)</sup> .

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية في الوقت الذي كان فيه العداء قائماً بينه وبين مغول فارس ، حتى أوقع بهم - كما رأينا - وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م ، واستحكم العداء بينهم منذ ذلك الوقت . ولم تكن هناك جريمة أشد في نظر مغول فارس من أن يروا رجلاً منهم في علاقة حسنة مع المماليك ، حتى كانت الوسيلة الفذة للإيقاع بأى مسلم من رعايا المغول هي اتهامه بالاتصال بالمماليك في مصر .<sup>(٢)</sup>

### ( هـ ) علاقة بيبرس بأرمينية :

ابتدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين بيبرس وأرمينية في الوقت الذي تقدم فيه هيثوم (Hethum) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشاً مكوناً من عسكر حماه وحمص . ولما تقابل الجيشان<sup>(٣)</sup>

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان هيثوم ملك أرمينية المسيحي الأثر الأول في العمل على إقناع أمراة المغول مانجوخان (٦٤٦ - ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) ، وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاءكو (٦٥٤ - ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) الذي أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطوريين منهم بتأثير زوجته المسيحية ؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية ونجورجيا الدين المسيحي وتعهدوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات . - Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam, p. 221

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاءكو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك

بالجنوب ، وصارت تلك المملكة ولاية تابعة لدولة المغول في فارس (Enc. Isl. Art. Armenia)

(٤) بيبرس السوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٩ ؛ المقرئزي : السلوك ج ١

القسم الثاني ص ٥١٠

وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى . وقد تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم . غير أن ساقط الثلج وزمهير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية<sup>(١)</sup> .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صنفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس والإغارة عليها؛ فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماه واخترقوا مضائق قيليقيا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن ، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده « ليفون » ، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا كل ما فيها<sup>(٢)</sup> .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعا في ولده ، فوعده السلطان بتلبية طلبه ، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر وأن يرد القلاع التي أخذها من مملكة حلب ، وهي بهسنا ودريساك ومرزبان وشبح الحديد . أظهر هيثوم استعداداه لتلبية الطلب الأول بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردد في تسليم القلاع ؛ فكتب إليه السلطان يقول : " إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما يبني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني ... " . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع في طلب الصلح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 23.

(٢) وهي عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢

(٤) كان هولاكوف قد أسر سنقر هذا أثناء إغاراته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور؛

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٨ (٥) العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٥٤ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

الأشقر وأن يسلم لبيبرس قلعة بهسنا ودر بساك وكل ما أخذه من البلاد الإسلامية ،  
وفي مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل  
بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلقه على نسخة  
الصالح التي حلف عليها والده <sup>(١)</sup> .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فان بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر  
الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدة حملات سنة ٦٧٣ هـ على  
حدود آسيا الصغرى كلت كلها بالنجاح . وفي إحدى غزواته المروعة التي قام بها على  
الأرمن لنقضهم العهد كانت مدينتا سيس <sup>(٢)</sup> والمصيصة <sup>(٣)</sup> مسرحا للسلب والنيران  
وعانت جنود الظاهر فسادا في كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ؛ وكانت غنائمهم  
عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية <sup>(٤)</sup> .

فما تقدم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم  
لكان خيرا لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين في ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين  
عليهم وتنجيلهم بهم . هذا التنكيل الذي انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم  
وتشتيت شملهم <sup>(٥)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه  
المررة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم لما  
ضاق ذرعا بأجاي (Atchai) بن هولكو الذى فكر فى قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه  
وكتب الى السلطان يقول له " أقصد هذه السنة (٦٧٣ هـ) سيس ، وفى السنة القادمة أملكك البلاد " .  
فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب الى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطئ نهر جبعان وهى تقارب طرسوس وبينها وبين أطنة تسعة أميال . ياقوت :

معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

p. 27. المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

p. 24.

## (و) علاقة بيبرس بملوك أوروبا :

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة، ففي الوقت الذي كان فيه العداء مستحكما بينه وبين الصليبيين والمغول في فارس نراه يخطب ودايمبراطور الدولة البيزنطية ويوفق في ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الامبراطور من سلطان مصر خير معين وعضد له على عدوهما معا في البلاد الشامية .

ولما استحسنت بين الدولتين عمرا المسالمة طلب الامبراطور من بيبرس بطريقا من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب في دولته ، فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ومعه الرشيد الكحال وبعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه<sup>(٢)</sup> ، ثم عاد هذا الأمير ومعه البطريق محملا بالهدايا . وعند ما علم السلطان بأن الامبراطور جدد بناء ذلك المسجد شرع في تأييده ، فأرسل إليه الحصر والفتاديل المنهبة والمباخر والسجادات والطيب<sup>(٣)</sup> .

(١) كان امبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفا في المذهب لكنيسة روما ، كما كانت عدوا للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنطينية وعوامل العداء متصلة في نفوس الفريقين . ومن الطبيعي أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية في نفس الامبراطور ميخائيل لسكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما هؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العبث وسوء الإدارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور ففرض عليها سنة ١٢٦٢ م ، وبذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Camb. Med. & Stanley Lane-Poole p. 260

Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلبة بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد خدمه اللاتين أثناء إغارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ؛ العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؛ Stanley Lane-Poole p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ ؛ المقرئى : السلوك

وقد أحسن الملك الظاهر صنعا بالتحالف مع هذا الامبراطور ايستعين به هو أيضا على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية في بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه في وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليفه سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٤ م) عند ما عاق رسله عن مواصلة السير إلى بركة خان كما تقدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاء كوا . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الامبراطور في السنة التالية يرسل إليه الهدايا<sup>(١)</sup> مما يدلنا على أنه كان يحرص على مخالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والامبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أباقا بن هولاء كوا من أبنسة امبراطور القسطنطينية<sup>(٢)</sup> . فكان من أثر هذه المصاهرة أن تقرب كل من أباقا والامبراطور من الآخر وفي هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمخالفته امبراطور القسطنطينية ، بل تبادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا<sup>(٣)</sup> الرسل والهدايا ، فأرسل في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وقدا<sup>(٤)</sup> مزودا بالتحف وعددا من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا في موقعة عين جالوت بخيولهم التتيرية وعتتهم<sup>(٥)</sup> . ولما قدم هذا الوفد إلى الامبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة بالزراف والتحف . ولم يلبث بعد ذلك أن أرسل إلى السلطان هدية مع أحد رسله<sup>(٦)</sup> وبذلك توثقت عمرا الصداقة بين البلدين وازدادت

(١) المقرئى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole. p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر في Ens. Isl. Art, Ibn Wāsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين

ابن واصل . (٥) Camb. Med. History VI p. 177. (٦) أعاد الامبراطور

مع هذا الرسول مملوكين بحرين عندما أساء الأديب على أثر قدمهما إليه مع هدية السلطان . ولما وصلا إلى مصر أمر بيبرس بتأديبهما فاعتقلا بقلعة الجزيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب .

رسوخا في عهد شارل صاحب أنجو<sup>(١)</sup> (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التي تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ، فضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ في صقلية . ويتضح لنا ذلك من هذا الكتاب الذي أرسله إليه أحد كبار رجال دولة الملك شارل ، إذ قال له فيه ” إن نخدمه ( شارل ) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا في بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه<sup>(٢)</sup> “. وربما كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل في عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية .

ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أراجونة (Aragon) والفرنس أمير إشبيلية الذي تبودلت<sup>(٣)</sup> بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا . وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها وده فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا منزودين بالهدايا ، وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحنفاة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه ، فأكرم وفادتهم وقبل الهدية منهم ثم أعد لهم مركبا أبحروا فيه إلى الأسكتندرية فوصلوا إليها في صفر سنة ٦٧٥ هـ .<sup>(٤)</sup>

### ( ز ) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدون إليه الجزية ، غير أنهم كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلما سنحت لهم الفرص ، وقد

(١) كان شارل هذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التاسع ملك فرنسا . غير أن القائد الجديد حوّل غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ؛ فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب بدفع مبلغ من المال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية تدفع إلى خزانة مملكته . ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٢١ ، Barker, The Crusades.

pp. 87-89. (٢) المقريري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٣

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (٣)

p. 266. (٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٢٧

حدث ذلك في أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل اسمه شكندة يؤدى الجزية ويقدم فروض الطاعة لمصر، فثار عليه ابن أخيه « داود » ووقع بينهما الشقاق والنزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده<sup>(١)</sup> .

ولما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفع الجزية السنوية لسلطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغيرا على بعض قرى الديار المصرية وآستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب<sup>(٢)</sup> .

وعند ما لم يقو شكندة على استرداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجدا بالملك الظاهر . فانتزع بيبرس هذه الفرصة ليثار من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لا تنقطع عن صعيد مصر؛ فجهز مع شكندة قوة من الجند بقيادة شمس الدين أفسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر . فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهم وبيع السبي بثلاثة دراهم .

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيل إلى البر الغربى . فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى رجا بمن معهما وتابعوا السير جميعا للقضاء عليه ؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة ، فانتحزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة<sup>(٤)</sup> .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

p. 271.

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. (٣)

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر

الكتنى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥١ و ٥٢

ولما تم لهم ذلك فرضوا عليه أن يقدم للسلطان في كل عام عددا من الفيلة والزرافى والفهود والخيول والأبقار وأن يكون نصف محصول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها؛ ثم عرضوا على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختروا الجزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عينا. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هذه الشروط وحلفوا شكندة عليها كما حلفوا أيضا رعاياه على طاعة نائب السلطان<sup>(٢)</sup>. فأين هذا مما صنعه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح معهم؟ فإنه عندما لم يستطع التغلب عليهم والإستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقد معهم صلحا أشبه بمعاهدة تجارية لتعهد فيها مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتعهد النوبة بتقديم الرقيق.

(١) أورد مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، نص هذا اليمين وقد جاء فيه " والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الخواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجدد المسيح كما جدد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود ... أننى أخلصت نبتى وطويختى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه واننى أبذل جهدى وطاقى فى تحصيل مرضاته واننى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المنتحصل لمولانا السلطان ... والنصف الآخر مرصدا لعمارة البلاد وحفظها من عندو يطرقتها وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعائة رأس واننى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية واننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئا من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالمصليب واعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود، ثم اننى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيرا ولا كبيرا ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية واننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقتسه واننى لا أنفرد بشىء من الأشياء واننى عبد مولانا السلطان عند نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من وآلاه وعدو من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد ."

ولما فرغ الأميران الأفرم والفارقاني من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، نخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بالاياع من السبي يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها<sup>(١)</sup> . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ ، فاعتقل بقلعة الجبل<sup>(٢)</sup> .

وهكذا اتسع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة ، ويقول ميور فى ذلك<sup>(٣)</sup> : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

### ( ح ) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز :

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان ما بين شرفائهما من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلجى أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه وبين الأمير جمار ، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ هـ واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذنا مكوسا من أهالى مكة وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب<sup>(٤)</sup> السكة باسمه .

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ هـ لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الانشاء نضر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦

(٣) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

وبعض الأجناد . وعند ما وصل إلى المدينة في أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سار منها إلى مكة فأدى بها فرائض الحج . ولما فرغ من ذلك علق كسوة<sup>(١)</sup> بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغا كبيرا من المال ليوزعوه على أهالي الحرمين ، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأميرى مكة وزاد في المال المقرر لهذين الأميرين ليسمها للناس الحج إلى بيت الله الحرام وعين نائبا له بمكة تلبية لطلب<sup>(٢)</sup> أميرها . وبذلك ازداد نفوذ بيبرس في تلك الأماكن المقدسة .

### ( ط ) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس :

ارتبطت مصر بعلاقات الود مع الحبشة في عهد بيبرس ، فأرسل ملكها كتابا إلى الملك الظاهر يتودد فيه إليه ويطلب منه أن يرسل إليه مطرانا . وقد خاطبه فيه بقوله :<sup>(٤)</sup> "أقل الممالك نحر أملاكك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه . إن رسولا وصل إلى جهة والى قوص بسبب الراهب الذي جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطرك يعمل لنا مطران يكون رجلا جيدا عالما لا يجب ذهبها ولا فضة ويسيره إلى مدينة عوان . فأقل الممالك يسير إلى تواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان . وما أنرت الرسل إلى الأبواب إلا أنى كنت في بيكار فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده . وعندى في عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين وإنما ( كذا في الأصل ) النصرارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ،

(١) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز في كل عام كسوتين : إحداهما للكعبة ، والأخرى لقبر النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) المقرئى : السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٥١ (٣) ذكر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٣ ، أن المطران في عصره هو القاضي الذي يفصل في الخصومات بين أهل طائفته . (٤) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٩ — ٢٢١

والمطران الكبير يدعوك ... وكل من يصل إلى المسلمين من بلادنا نحفظهم  
ونسفرهم كما يحبون . والرسول الذي حضر إلينا من جهة وإلى قوص مرض  
وبلادنا ونحمة .“

فكتب إليه بيبرس يقول : <sup>(١)</sup> ”ورد كتاب الملك الجليل الهام العادل في مملكته  
حطى ملك أحمرة أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على ما لم من البلدان نجاشى عصره  
وفريد مملكته في دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، صديق  
الملوك والسلاطين ، سلطان الأحمرة ، حرس الله نفسه وبني على الخير أسه ، فوقفنا  
عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا  
نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضسونه أنه وصل  
من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من  
كثرة عساكره وأن من حملتها مائة ألف من المسلمين ؛ فالثتعالى يكثرفى عساكر  
المسلمين . وأما وخم بلاده فالآجال مقدره من الله تعالى وما يموت أحد إلا بأجله ،  
ومن فرغ أجله مات .“

فما تقدم نرى كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين  
والشرفيين المعاصرين له ؛ فكانوا جميعا يخشون بأسه ويعملون كل ما فى وسعهم للتودد  
إليه والتقرب منه ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة  
والنبوغ فى فن الحرب .

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٢١ - ٢٢٢